



أجبت في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة

خطبت أجمعت أموزجا

The argument in the mosque speech between conviction and practice Friday sermon is a model

د. السعيد قاسمي

saidgasmi14@yahoo.com

المركز الجامعي الشهيد سي أكواس - بركت

تاريخ القبول: 2020/10/09

تاريخ الإرسال: 2020/01/05

الملخص: تستوجب الخطبة في طبيعتها الجوهرية خطيبا ومتلقيا، يكون للمتلقى الاستعداد لتقبلها انطلاقا من مبدأ التعاون، والخطيب ملزم بالبرهنة وتوجيه الإرادة، مستعينا في ذلك بالشروط الكفيلة لصناعة الرأي وتوجيه مسارات الفكر من أجل تحقيق مقصد ما، ومادام الأمر متعلقا بخطبة خاصة تنتمي إلى مجال معرفي خاص فإن لها من هذا المفهوم ذاته سمات خاصة تقتضي البحث عن الوسائل التعبيرية الجمالية لكي تحقق أثرها لدى المتلقي. فالسؤال الذي يطرح نفسه:

- كيف نؤسس إلى معرفة حجاجية وظيفية في الخطاب المسجدي المعاصر؟
- وما هي أصوله المعرفية التي يعتمد عليها الخطيب من أجل الإقناع والحث على الممارسة؟

الكلمات المفتاحية: الخطيب، المتلقي، خطبة الجمعة، الاقتناع، الممارسة.

Abstract: . The speech requires in its essential nature a preacher and recipient, in which the recipient is ready to receive it based on the principle of cooperation, and the



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

preacher in that is obligated to demonstrate and direct the will, and in that he uses the conditions to form an opinion and direct the paths of thought in order to achieve a certain goal, as long as the matter is related to a special sermon belonging to a special field of knowledge, and this speech has special characteristics that require searching for aesthetic expressive means in order to achieve its effect on the recipient. Accordingly, we ask the following questions: How do we establish a functional argument knowledge in contemporary mosque discourse? And what are the knowled georigins that the preacher adopts to persuade and induce practice?

Keywords: Preacher; Recipient; Friday sermon; Persuasion; Practice.

تقتضي الخطبة في طبيعتها الجوهرية خطيباً ومتلقياً، يكون للمتلقي الاستعداد لتقبلها انطلاقاً من مبدأ التعاون الذي اقترحه قرأيس، أما البليغ فإن له مترع البرهنة وتوجيه الإرادة مستغلاً ما يوفره من الإعجاب. وهي شروط كفيلة بصناعة الرأي وتوجيه مسارات الفكر إلى تحقيق مقصد ما كان قد وضعت له الأطر الاستراتيجية لتوصيله بطريقة ناجحة، ولقد ظلت هذه المسارات محل اشتغال البلغاء في كل زمان ومكان، تتخذ لها طرائق تعبيرية مختلفة ولكنها تقوم كلها على أسس ثلاثة: الحق والخير والجمال. ومادام الأمر متعلقاً بخطبة خاصة تنتمي إلى مجال معرفي خاص وهي الخطبة المسجدية، فإن لها من هذا المفهوم ذاته سمات خاصة تقتضي التركيز على مفهومي الحق والحقيقة في المقام الأول ثم البحث عن الوسائل التعبيرية الجمالية لكي تحقق أثرها لدى المتلقي.

فما هو الحق وما هي الحقيقة؟ لا نتحدث هنا عن التعريف اللغوي للحقيقة المأخوذة اشتقاقاً من الحق وهو الثابت ويذكر عادة في مقابل الباطل ومنه قوله تعالى:



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

(ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) الزمر 71 وكذلك قوله تعالى: (حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق) الأعراف 105؛ أي واجب علي¹.

أما الحقيقة فهي على وزن فعيلة وفعيلة بمعنى الفاعل وتكون بمعنى المفعول، فعلى التقدير الأول يكون معنى الحقيقة: الثابتة. وعلى التقدير الثاني تكون بمعنى الحقيقة المثبتة². إن ما يهمنا هاهنا فهو المعنى المتعارف عليه اصطلاحاً لأن البحث يقوم على أساسه وهي بهذا المفهوم (اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب)³.

أما الاصطلاح فهو اتفاق قوم على استعمال شيء في شيء معلوم عندهم كاصطلاح أهل الشرع على استعمال الصلاة في الأقوال والأفعال المخصوصة⁴. أما التخاطب فلا يتجاوز معناه مجال التفاهم مطلقاً وفيه تتحدد طبيعة الدلالة المقصودة حقيقة كانت أم مجازاً ويوجز التفتازاني بقوله: "الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب جامع مانع لا غبار عليه"⁵. ويظل المخاطب في حركة دائبة يراقب أسلوب الخطيب صعوداً وهبوطاً على سلم الخطيب الحجاجي منتقلاً من تضاريس

¹ - ينظر، محمد ماهر زكريا، أثر علم الدلالة في تفسير النصوص - المجاز أنموذجاً -، دار النوادر اللبنانية، ط1، 2014، ص 37، 49.

² - ينظر، الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 01، مادة حقق، 1998، ص 203/204.

³ - ينظر، المنهاج للبيضاوي (مع الإيهام للسبكي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ، ج1، ص207.

⁴ - أحمد بن عبد اللطيف الخطيب الجاوي، حاشية النفحات على شرح الورقات، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 02، 2013، ص41.

⁵ - عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، شرح مختصر المنتهى الأصولي للإمام أبي عمرو عثمان ابن الحاجب المالكي، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 01، ج1، 2004، ص507.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز بأنواعه، إلى ما يعادلها في حياة الناس، علاوة على ما يصطحب كل ذلك من علامات تربطه بالخطيب ارتباطا وثيقا وهذا ما يعطي للخطاب تنوعات أسلوبية تشغل كلها للإقناع والتوجيه. — كما يقول حميداني — "ما يقضي بيث الأخبار من نقطة ما إلى نقطة أخرى ويكون نقل الخبر بواسطة رسالة مسننة لها شكل معين"¹ فلنص الحجاجي ههنا بنية متسقة ذات انسجام دلالي واضح. ويقول شرفي في هذا الصدد: "النص يحدد بكيفية مسبقة سيرورات تلقيه الممكنة ويراقب كل واحدة منها بفضل قدرات التأثير التي تحركها بنياته الداخلية، وبعبارة أخرى فإن النص هو الذي يتحكم في كل سيرورات القراءة"²، لأنه يلف بطريقة إستراتيجية مقصدية مخصوصة وهي "تعني في جميع الأحوال أن المتكلم يملك زمام التحديد القبلي المراد تبليغه للقارئ"³، كل هذه الحجج إنما تقوم على أساس ما يرسمه العقل ويخطط له الذكاء فـ "العقل مناط التكليف وعليه المعول في فهم الشريعة وتطبيقها، وإذا ما اختل العقل، سقطت التكالييف... ويعتمد الإسلام أولا إلى تفريغ العقل من كل المعتقدات والتصورات التي لا تتفق ومنهج"⁴. ولكن طالما أن هذا الأمر ممتنع عمليا فإن الخطيب يتكئ على تغيير ما لا يقبله العقل المجرد في بداية الأمر ثم يتبع ذلك بما يلزمه من سلوكات مطابقة، فينتقل من مدرج إلى آخر حتى يصل به مساره، "إلى قاعدة اختيار الرسالة التي مؤداها أن الاختيار يتوقف على العلاقة الموجودة بين الفائدة المتوقعة من

¹ - حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة - تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2007، ص48.

² - عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2007، ص184.

³ - حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة - تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، مرجع سابق، ص105.

⁴ - عبد الرحمن عميرة، منهج القرآن في تربية الرجال، دار الجيل، بيروت، ط01، 1991، ص27.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

طرف المستقبل من جهة والجهد الذي يبذله هذا الأخير من جهة أخرى¹؛ وبالأخص الجهد الفكري من أجل فهم مضمون الرسالة التي يتلقاها. ومع ذلك تبقى الجدلية قائمة ويبقى الإشكال الجوهرى في هذا المقال قائما على ما نلاحظه من عدم تناسب التحصيل المعرفى مع تحقق الفعل التواصلى الإقناعى لدى خطباء العصر الراهن. لا يمكن أن نؤسس إلى معرفة حجاجية وظيفية في الخطاب المسجدي المعاصر دون استجلاء أصوله المعرفية التي يعتمد عليها الخطيب عن قصد أو غير قصد بغرض التمهيد إلى خطابه على مستوى المقام الاختياري الذي يحصل عادة في الدروس الموازية أو على مستوى المقام الإجباري في الجمع والعيدى والمناسبات الوطنية وغيرها. فالخطاب المسجدي يقوم أساسا على نظام معرفي تشيد بوساطته المعرفة في المنظومة الفكرية التي يحكمها مصدران تشريعان النقل والعقل، وما يحصل من اختلاف في مسارات التحليل وطرائق الاستدلال إنما يعود إلى نسبة التفاعل الحاصل بين المصدرين عند الخطيب أو المدرس.

لا يسمح المقام ههنا أن نستعرض مقومات المذاهب الإسلامية في التشريع فمنها ما يتخذ النص منطلقا إجباريا في تحديد الظاهرة موضوع التعليل والتدليل، ومنها ما يركن إلى العقل من خلال بناء منظومة منطقية تكون بمثابة المعيار الذي يعود إليه العقد والحل.

إن هذا الخطاب علاوة على المقدمات الكبرى المذكورة يعالج قضية معينة أو مجموعة من القضايا التي يلفها المقام الراهن ومقتضى الحالة الخاصة التي تفرضها المناسبة أو الوضعية التواصلية، ولذا فإن كل خطبة مهما كان نوعها فإنها تنتمي معرفيا إلى مجال

¹ - عبد العزيز خواجه، أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني - دراسة سوسولوجية لعمليات الاتصال في القصة القرآنية -، دار صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط01، 2007، ص106.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

معين تحدده طبيعة العلوم ومداراتها الفكرية والمنهجية. فالخطاب قبل أن يتحول إلى ملفوظات تداولية يلقيها الخطيب في حضرة مستمع معين في مقام معين، يكون بطبيعة موضوعه المقدم منتما إلى أحد العلوم المصنفة عموما تحت مصطلحات العلوم العقلية كالطب والحساب والهندسة وغيرها، ودينية كعلم الكلام والفقه وأصوله والتفسير والحديث وعلومهما .

إن العلوم ذات المصنف الأول لا تتخذ عند الخطيب عادة موقعا مركزيا في التحليل، ولكنها تتحول إلى وسيلة إقناعية فاعلة إذا ما أحسن الخطيب استغلالها في المناسبة المواتية؛ وذلك لأن نتائجها عقلية لا تقبل الاستنكار من حيث هي موضوع عقلية مبرهنة، ولكن قد تؤدي بالخطاب إلى الفشل الذريع إذا ما أدرك المتلقي الواعي أن هذه القضية المطروحة تدليلا على قضية أخرى يريد الخطيب أن يدعمها بعيدة كل البعد عن جوهر الاستدلال، مما يؤدي به إلى إسقاط وجهات نظر أهامية لمقصدية الخطيب فلا تتحقق الوظيفة التواصلية، بل قد يؤثر ذلك التدليل الجزئي الخاطئ على كل الاستدلالات الأخرى التي يقدمها الخطيب مهما كانت صحتها ومهما كان جدواها.

أما العلوم الأخرى التي تندرج ضمن مجالات اهتمام المسجد، فهي تلك العلوم التي يؤطرها المصنف الثاني من العلوم الدينية، وما يكتنفها من معارف ضرورية كعلم الأخلاق والاجتماع والنفس وما إلى ذلك، من المعارف المتصلة اتصالا مباشرا بالإنسان وسلوكياته في مختلف مجالات الدائرة الاجتماعية والتفاعلات الحاصلة فيها.

كما تعد الحجة من بين أحد أهم الركائز الأساسية في الخطاب المسجدي بصفة عامة وخطبة الجمعة بصفة خاصة، خاصة في عصرنا هذا عصر التفتح التكنولوجي الذي تكثر فيه الإغراءات بمختلف الأنواع وبشتى السبل، والتي يكون لها في كثير من الأحيان مفعول السحر على المتلقي فتأسر القلب والعقل فينقاد نحوها المتلقي دونما أدنى تفكير،



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

فتحمله على تبني مواقف قد تكون خاطئة في كثير من الأحيان؛ خاصة عند عامة الناس. مما يجعله عصر الحجة بامتياز؛ لأن " الحجاج بمعناه العادي طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعالا... إذ يجب ألا يُهمل طبيعة السامع (أو المتقبل) المستهدف"¹.

إضافة إلى أن تنوع المتلقين من جهة وعدم مشاركتهم في الحوار من جهة أخرى، يفرض على الخطيب تنويع أساليب الخطاب والحجة المقدمة قصد التأثير في أكبر شريحة اجتماعية ممكنة، والحجة لا تقتصر دائما على مخاطبة العقل في مثل هذا النوع من الخطابات؛ بل يتحتم في بعض الأحيان مخاطبة الوجدان والقلوب قصد تحريك النفوس من أجل التفاعل وجذب الانتباه -خاصة في خطبة الجمعة- مما يعينهم على الحضور الوجداني المستمر في عميلة التواصل العقلي خاصة، فيجعلهم ينجذبون أكثر لمحتوى الخطبة محاولين بذلك الاندماج في التواصل بطريقة غير مباشرة.

كما أن البحث عن الحجة الأكثر إقناعا واحدة من أهم الوسائل اللغوية التي من شأنها أن تقوم بهذا الدور دون غيرها، حيث يستند فيها الإمام إلى مجموعة من الأساليب والصيغ مثل "أسلوب التعريف، وأسلوب الوصف، وأسلوب السرد والوقائع، وأسلوب الشرط والافتراض، وأسلوب التمثيل، وأسلوب المقارنة، وأسلوب التقويم والحكم، دون أن ننسى بعض الآليات الحجاجية الأخرى، مثل: الشرح، والاستقراء، والقياس، والاستدلال، والتعارض، والجدل، والتطابق، والاستثناء، والهدف، والسبب، والإضافة، والنتيجة"²، كل هذه الأنواع من الحجة من شأنها أن تعمل على إقناع أكبر عدد ممكن

¹ - صابر لحباشة، التداولية والحجاج- مداخل ونصوص-، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط01، 2008، ص21.

² - جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط01، 2014، ص10.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

من المتلقين، وصولاً بهم إلى الاقتناع، شريطة حسن توظيفها في المقام المناسب، فـ: "العامي مكلف بالاجتهاد، لأن قول الفقيه بالنسبة للعامي هو مثل الدليل بالنسبة للفقيه وعلى العامي هنا أن يأخذ بقاعدة الترجيح معتمداً في ذهنه شرط القياس والتفحص بناء على مناط الحكم"¹.

معنى ذلك أن العامي في كثير من الأحيان لا يكلف نفسه عناء البحث عن المعنى الدقيق المراد من الحديث. بل يغلب عليه طابع الترجيح والأحكام القرية من مستواه الثقافي والاجتماعي، وحتى يتسنى للمتلقي المسك بالدلالة الصحيحة التي يتوخاها الخطيب، وجب على هذا الأخير التدرج في الحجة وتنويع أساليبها، أي إخضاعها لسلم حاجي مناسب مراعي في ذلك مختلف قوانينه المتمثلة على سبيل المثال لا الحصر في "قانون النفي، قانون القلب، وقانون الخفض"². كل ذلك يندرج فيما أطلق عليه شارودو: "التقنيات القولية التي تمكّن من إثارة أو تنمية انخراط العقول في الأطروحات التي تقدم إليها لتنال رضاها"³، معنى ذلك أن طريقة الصياغة اللغوية وطريقة تقديمها -بما في ذلك اللغة الحجاجية- هي الحجة الأولى التي تساعد على انخراط المتلقي في الحوار سواء أكان شفويا أو عقليا، في كل الخطابات التواصلية بما في ذلك خطبة الجمعة.

¹ - عبد الله الغامدي- الفقيه القضائي، تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة- المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2011، ص11.

² - ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط01، 2006، ص22-23-24.

³ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر، أحمد الوديني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2009، ص8.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

كما يعد الترتيب الحجاجي من بين أهم الإستراتيجيات التي يجب على الخطيب أن ينتبه لها ويهتم بها؛ لما لها من أهمية في عملية التبليغ وترك الأثر في النفوس، ولعل هذا الأثر من بين أهم أهداف الخطاب المسجدي بصفة عامة وخطبة الجمعة على وجه الخصوص، ذلك أن اللغة "تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق"¹؛ معنى ذلك أن لنظم اللغة آثارا في ترتيب أفكار المتلقي مما يجعله يرتاح للخطيب أو ينفر منه؛ وذلك من خلال طريقة النظم الذي عُدّت وفقه، حيث أنها كلما كانت حسنة السبك استأنس المتلقي لسماعها، مما يساعده على التدرج في تلقي المعلومة تدرجا يسمح له بالاقتناع والعمل في ضوئها؛ لأن ترتيب المعاني اللغوية واختيار الألفاظ المناسبة وقعا إيجابيا في نفس المتلقي، مما يحقق بالضرورة تمكّنه من المعنى وتمكّن المعنى منه.

إن الخطيب الناجح هو الخطيب الذي يكون مزودا بقدرتين أساسيتين، هما القدرة اللغوية والقدرة التواصلية؛ أما الأولى فإن أهم ما يمثلها ما يعرف بالمستويات اللسانية، فالخطيب لا يمكنه أن يتصدى لهذا الدور التبليغي الخطير دون أن يكون على دراية واضحة بأساليب اللغة التي يستعملها؛ فهي تمثل القاعدة الأساسية لبناء الخطاب. وسيؤدي الخطأ في أحد مستوياتها إلى سقوط الصرح الخطابي برمته.

أما القدرة التواصلية فهي قدرة نفسية - اجتماعية؛ أي أنها مرتبطة بمعطيات خارجية يحددها سياق الخطبة ومقامها بما في ذلك العامة من الناس الذين يحضرون هذه

¹ - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 42.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

الخطبة، ومن خصوصياتها أنها غير محددة سلفا كما هو الحال في المؤسسات التعليمية الأخرى مما يؤدي بالخطيب إلى توسيع مجال الخطبة، فما يقدمه لا يكون متصلا بفئة قابلة للوصف الحضور، ولكنها مرتبطة بمقام افتراضي. مما يجعل الخطبة قائمة على أسس تواصلية افتراضية أيضا، وهذا ما يؤكد عموميتها؛ ولكن بمجرد الشروع في الخطبة الفعلية أمام المصلين الذين اعتادوا على سماع المقدمات المدخلة العامة المحفوظة عموما، فإنه يؤثر قوله ضمن سياق خاص يجتهد في جذب السامع إليه عن طريق طرح إشكالية بسيطة حول موضوع الخطبة والكشف عن علل التطرق إليها وذلك عبر آليات (التدليل، التحليل، التعليل).

أما التدليل فنعني به حسن اختيار الحجة التي تكون خادمة للهدف الرئيسي للخطبة وميسرة له، وذلك عن طريق استعمال الحجة بالمثال واستحضار التاريخ والمقارنة بالآخر وغيرها من طرائق الحجاج، ويكون هذا مفيدا إذا كان مرتبطا بالتحليل وربط العلة بالمعلول والنتيجة بالسبب مستعينا بأمثلة من الواقع القريب أو البعيد وهو ما يصل به إلى آلية التعليل. "إنه بذلك يكسب خطابه مظاهر حجاجة ثلاثة ... أولا القضاء على تعدد الاستلزامات والنتائج ... وثانيا قبح المواضع وتنشيطها فالموضع يكون هو العمدة في ارتباط "ق1" أي المعطى بالنتيجة أي "ق2" ... وثالثا تقوية التوجيه نحو النتيجة"¹؛ أي وجوب معرفته للإمكانات المتاحة لتوظيف خطاب دون آخر وبداية اختيار الملفوظ المحدد للمقام المناسب.

إن "الفرد الذي يعرف اللغة يعرف شروط استعمالها كما يعرف الأهداف التي يروم بلوغها في ظل شروط اجتماعية معطاة، وبما أن اللغة أداة وضعت كي تُستعمل،

¹ - عز الدين الناجح، العوامل الحجاجة في اللغة العربية، دار نهى، صفاقص، تونس، ط01، 2011، ص35.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

فإنه من المعقول افتراض نسق من القواعد والمبادئ يضطلع بكيفية استعمالها. على هذا الأساس تم التمييز بين قدرة نحوية وبين قدرة تداولية¹.

إذن لا يتم حصول عملية الإفهام والفهم كما يقول الشهري: "إلا بالاتكاء على معرفة السياق وفقا لهذا المنهج الذي يتيح للمرسل التلفظ بخطابه بتوظيف كل هذه المستويات ... وبالتالي فإن الدرس اللغوي التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه، لأن اللغة لا تؤدي وظيفتها إلا فيه، فليست الوظائف مجردة. وبما أن الكلام يحدث في سياقات اجتماعية فمن المهم معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز"².

لكن سيظل فحوى الرسالة مهما "وذلك لأن المرء هنا يتأثر بمضمون الرسالة وليس بالمرسل"³، وقد نحتاج في بعض الأحيان إلى قوة الخطيب وحسن لغته وقوة صوته، وكل ما يتعلق بشخصيته من أجل حسن التنفيذ وقوة التأثير لأن "قدرة المتكلم على معرفة كيف يستعمل اللغة، ومعرفة ما يجب قوله في ظروف معينة، ومتى يجب عليه السكوت ومتى يجب عليه الكلام، إنما المعارف التي تزداد على الكفاية اللغوية الصرفة المتمثلة في إثراء الرصيد المعجمي عند مستعمل اللغة وتمكّنه من قواعد لغته، والسيطرة

¹ - عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي، مقارنة لسانية وظيفية، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 2012، ص40.

² - الشهري (عبد الهادي بن ظاهر) استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد الحديثة، ط1، 2004، ص23.

³ - علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة-، دار الصفوة، بيروت، ط01، 1994، ص183.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

على المعاني ووضوح خطابه"¹، فكم من متكلم يعجز على تفسير المعنى وإيصاله للمتلقي ليستقر بالمعنى الذي يريده، لولا مساعدة أعضائه، وإلا فكيف يتواصل الأصم ويعبر عن حاجياته، بل ربما كان أبلغ من غيره في شرح المبهم والاحتجاج له، لذلك فإن لأعضاء الخطيب دورا بارزا في تقريب المفهوم وإزالة المبهم والتأثير على المتلقي؛ قصد تحقيق فعل الإقناع الذي يعتبر أحد أهم أهداف الخطبة للوصول إلى الممارسة.

إن الإمام وهو يلقي خطبته لا يقصد مخاطب بعينه بقدر ما هو لعامة الناس، وهذا ما تقتضيه أصول الخطبة لأنه "عندما يلقي المتكلم خيرا فإنه يلقيه إلى مخاطب، سواء أكان ذلك المخاطب حقيقيا أم متصورا، وبناء على ذلك يراعي المتكلم حالة مخاطبه"²، وفي مثل هذه الخطب بالأخص وجب الحرص على الحجة العقلية المستمدة من مختلف المصادر خاصة القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة السلف الصالح. إن الاحتجاج في الخطاب المسجدي بصفة عامة، وخطبة الجمعة على وجه الخصوص، لنا أن نصطلح على تسميته بمهارات الإقناع.

وفي ما يلي: مخطط يبين لنا أهم المراحل التي تمر بها الرسالة الدينية، ومنها الخطبة حتى تصل إلى المتلقي³

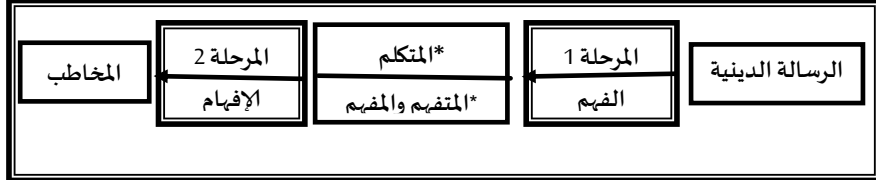
¹ - هادي نمر، الكفاية التواصلية والاتصالية دراسة في اللغة والإعلام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2003، ص89.

² - عبد الرزاق عبد اللطيف، تطبيقات في البلاغة والقواعد، دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، 1995، ص29.

³ - العايش عبدوش، غلط الفهم وتغليب الإفهام . نظرة في الخطاب الديني، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، منشورات مخبر تحليل الخطاب، العدد15، ص129.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي



لكي تتمكن من مراقبة بنية الخطاب المسجدي وفق هذه الخطاطة التوضيحية يتحتم علينا معاناة مكونات السياق كما فهمه الأصوليون أنفسهم. إن السياق لا يخرج عندهم عما أسسه علماء البلاغة في اشتراطهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ويمكن أن تلخصها المقولات الشهيرة عندهم "لكل مقام مقال أو لكل كلمة مع صاحبها مقام"¹. لقد كان السياق عند البلاغيين والأصوليين الركن الأساس في إقامة بنية النص الدلالية برمتها، إذ لم يفت الجاحظ أن يخصص له محلا بارزا في البيان والتبيين، حيث يقول: "أصناف الدلالات على المعاني خمس طرائق (اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه صورة بائدة عن صورة صاحبها وحلية مخالفة لحلية أختها وهي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير"². ومن بدائع أبحاث البلاغيين لمظاهر السياق ما يلخصه القاضي الجرجاني في الوساطة: "يرق شعر أحدهم ويصلب لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بمقدار دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى

¹ - ينظر: (القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت739)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ج1، 1989، ص9.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، 2003، ص136.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

الجاني منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب، حتى أنك وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث ذلك"¹.

تؤسس هذه النظرية في نظر هادي نهر إلى فكرة جديدة مفادها أن: "سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، والسلامة المقصودة عند الجرجاني لا تتم في السلامة اللغوية النابعة من بيئة اللغة من حيث بداوتها أو حضريتها وإنما هي السلامة المرتبطة باتفاق العبارة أو الجملة مع الموقف النفسي للمرسل أثناء صياغة رسالته وكذا ارتباط الرسالة بالظروف المحيطة كما يمثلها سياق الموقف أو المقام"².

لقد سار البلاغيون على هذا المنوال في رفع قيمة السياقات التواصلية والتبليغية مجمعين على أن فهم الفهم وإنتاجه إنما يكون بسبه. وكذا فإن الأصوليين قد اتخذوا المنهج نفسه بل لعلهم كانوا إليه أحوج، "فقد امتلأت كتب الأصول — كما يقول أسامة عبد العزيز جاب الله — بدراسات مستفيضة لدلالات مبحث السياق نجد ذلك في دلالة الأمر وتخصيص العام والحقيقة والجاز والمشارك اللفظي وتقييد المطلق والقرائن العقلية المتنوعة في توجيه الخطاب وأغلب ذلك يدخل في مباحث علم المعاني"³.

لقد اشتغل الأصوليون على مفهوم الخطاب لأنه مدار التبليغ ويقول الشاطبي في هذا المقام: "إن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم الكلام — فضلا عن

¹ - القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبئ وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد الجاوي، الهاشمي الحلبي، ط2، 1951، ص187.

² - الهادي نهر، علم الدلالة التطبيقي، جدارا للكتاب العالمي عمان — الأردن و عالم الكتب الحديث إربد — الأردن ط1، 2008، ص121.

³ - أسامة عبد العزيز جاب الله، مقارنة البيان والدلالة في النسخين البلاغي والأصولي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2015، ص8.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

معرفة مقاصد كلام العرب — إنما مداره على مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك¹، إذ يمتنع أن يقال: إن القرائن من إشارات ورموز وحركات تابعة للفظ؛ لأنه لا أحد يقتنع بأن حركة المتكلم وأخلاقه وعاداته وأفعاله وتغير لونه وتقطيب وجهه وجبينه وحركة رأسه وتقليب عينيه تابع للفظ، بل هذه أدلة مستقلة يفيد اقتران جملة منها بعلوم ضرورية².

أثارت الخطبة المسجدية الاهتمام علماء اللغة وحركت همهم وطافهم للكشف عن أسرارها وتفسير العلاقات والروابط بين أجزائها، ويتجلى هذا الاهتمام في دراسته للمعني -الديني خاصة - وكيفية إيصاله للآخرين والحث على تطبيقه، في دراساتهم السابقة نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الإمام البخاري في كتابه الصحيح حيث أفرك بابا في هذا الشأن سَمَاه (باب العمل قبل القول) نظرا لإدراكه لأهمية التطبيق للتعاليم الإسلامية لا الاكتفاء بمعرفتها فقط³.

إن البحث عن المعنى يحتاج إلى أدلة وحجج كثيرة، من أجل التأثير في أكبر شريحة من الحاضرين، وإقناعهم بالقول وحثهم على وجوب التطبيق، فإذا كانت الحجة هي البرهان والغلبة وقوة الدليل. إلا أنها غير كافية لوحدها ما لم تكن في رصف لغوي متين

¹ - الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، ت790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط02، ج3، 2004، ص347.

² - الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد، ت505هـ)، المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد أبي العلا، مكتبة الجندبي، القاهرة، ج2، 1971، ص15.

³ - ينظر، كريم حسن ناصح الخالدي، نظرية المعنى في الدراسات النحوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2006، ص7.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

الأجزاء متماسك المعنى قوي السبك يستدرج من خلاله المتلقي للاقتناع، وقد تفتن القدامى إلى ذلك حيث اهتموا إلى ما يعرف بالنظم والذي يعني بشكل أو بآخر "أن تتخذ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشند في ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج إلى وضعها في النفس وضعا واحدا، فالكلام أو الجملة وحدة متماسكة العناصر لها نظامها وعلاقتها الداخلية، ولها توزع وتعدد ونظم مدلولي تام"¹؛ معنى ذلك أن الكلام الذي يؤثر في المتلقي ويكون له وقع إيجابي عليه، هو ذلك الكلام المترابط ترابطا يستهويه ويجعله أكثر إذعان لما يسمع؛ لكي يتمكن من المعنى الحقيقي المراد تبليغه من قبل المرسل، ويجعله أكثر واقعية مما يساعده على الاقتناع بإمكانية التطبيق، كل ذلك يضمه محتوى الرسالة.

وحتى ينجح الإمام في مهمته هاته وجب أن يحظى بثقة المتلقي، والخبرة الكافية بالمهمة المنوطة به؛ والخبرة المقصودة هنا ليست تلك الخبرة التي تقاس بمدى تواجده في الوظيفة؛ بل الخبرة المعنية هي الخبرة المعرفية التي تقاس بمدى إدراكه لمهمته والاطلاع الواسع على الموضوع المراد تقديمه. كل ذلك يكون كفيلا بالتأثير في أكبر شريحة اجتماعية ممكنة خاصة وأنه أمام مستويات إدراكية متنوعة، وهذه الخبرة المعرفية هي التي تجعله محل قبول وثقة من طرف أكبر عدد منهم، وهذه الثقة هي محل حجة قوية تؤثر بطريقة مباشرة في تبني الأفكار والدفاع عنها، كما أنها العامل الذي يجعل المتلقي أكثر انقيادا وخضوعا لما يسمعه.

كل ذلك يدخل ضمن دائرة التفاعل بين المعنى وصاحبيه وأقصد بهما المتكلم والمخاطب وما يربط بينهما من وشائج أخلاقية، فما دامت الرسالة الموجهة من قبل

¹ - هدي صلاح رشيد، تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، دار الأمان، الرباط، ط01، 2015، ص340.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

الخطيب فإنه يتحمل أخلاقيا مسؤوليتها الدلالية فالمعنى متصل بمقاصده "ذلك أن المتفهم للخطاب لا يستطيع الانفلات من هيمنة المتكلم واستحضاره في ذهنه وهو يحاول فهم كلامه، لأنه يسأل نفسه حينها: ماذا يريد المتكلم أن يقول؟ وهو إن لم يعرف المتكلم بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرًا"¹.

وكذا فإن أهمية المتلقي تتجلى بوضوح في مدى نجاح الرسالة أو فشلها لأن المعنى إنما سُبِكَ من أجله وأُحْكِمَ بغرض إقناعه واستمالته، ينقل ابن جني عن أحد فصحاء العربية قوله: "أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة"² "إننا نستعمل المخاطب في صيغة الجمع دائما فهو متغير باستمرار فأحيانا يكون مريضا وفي أخرى معافى وهكذا. وفي ما يلي، رسم توضيحي لمدى العلاقة الموجودة بين المرسل والمتلقي وقوة تأثير الرسالة:³

¹ - ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 466)، سر الفصاحة، تصحيح عبدالعالي الصعيدي، مكتبة صبيح، القاهرة، 1969، ص 44.

² - ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني) (ت 392)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999 ج 1، ص 247.

³ - علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة -، دار الصفوة، بيروت، ط 01، 1994، ص 82.



التغيرات	العوامل المتوسطة	التأثير الاتصالي
المصدر	الإصغاء	تغيير معتقد
الرسالة	الفهم	تغيير موقف
المتلقى	الإذعان	تغيير السلوك
الوسيلة	الحفظ	

من خلال ما سبق ذكره نستنتج أن الخطاب ومن خلاله خطبة الجمعة تمر بعدة مراحل وبمشاركة مجموعة من الأقطاب التي تساعد بشكل مباشر أو غير مباشر وتعمل متعاضة من أجل تحقيق مضمون الخطبة من جهة والعمل على التأثير في المتلقي من جهة أخرى لتصل به إلى مستوى الفعل والتطبيق، ولا يمكن له أن يصل إلى تلك المرتبة إلا بلغة متينة المبني قوية المعنى، من أجل تحديد الأفكار وتصحيح المفاهيم، قصد ممارسة واعية تخضع للضوابط الشرعية. والتي هي أقصى غايات الخطاب المسجدي بصفة عامة، وخطبة الجمعة على وجه الخصوص.

قائمة المصادر والمراجع:



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

- 01- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني) (ت392)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، 1999.
- 02- ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت466)، سر الفصاحة، تصحيح عبدالعالي الصعيدي، مكتبة صبيح، القاهرة، 1969.
- 03- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط01، 2006.
- 04- أحمد بن عبد اللطيف الخطيب الجاوي، حاشية النفحات على شرح الورقات، دار الكتب العلمية، لبنان، ط02، 2013.
- 05- أسامة عبد العزيز جاب الله، مقارنة البيان والدلالة في النسقين البلاغي والأصولي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2015.
- 06- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر، أحمد الوديني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2009.
- 07- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، 2003.
- 08- جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط01، 2014.
- 09- حميد حميداني، القراءة وتوليد الدلالة - تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2007.
- 10- الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، مادة حقق، ط01، 1998.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

- 11- الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، ت790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2004، ج.3
- 12- الشهري (عبد الهادي بن ظاهر) استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد الحديثة، ط1، 2004.
- 13- صابر لحباشة، التداولية والحجاج- مداخل ونصوص-، صفحات للدراسات والنش، دمشق، ط01، 2008.
- 14- العايش عبدوش، غلط الفهم وتغليب الإفهام . نظرة في الخطاب الديني، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، منشورات مخبر تحليل الخطاب، العدد.15
- 15- عبد الرحمن عميرة، منهج القرآن في تربية الرجال، دار الجيل، بيروت، ط01، 1991.
- 16- عبد الرزاق عبد اللطيف، تطبيقات في البلاغة والقواعد، دار الشريعة للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، 1995.
- 17- عبد العزيز خواجه، أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني- دراسة سوسيولوجية لعمليات الاتصال في القصة القرآنية-، دار صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط01، 2007.
- 18- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.
- 19- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2007.
- 20- عبد الله الغامدي- الفقيه القضائي، تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2011.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

21- عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي، مقارنة لسانية وظيفية، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 2012.

22- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار نهي، صفاقص، تونس، ط01، 2011.

23- عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، شرح مختصر المنتهى الأصولي للإمام أبي عمرو عثمان ابن الحاجب المالكي، تح، محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، ج1، 2004.

24- علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة-، دار الصفوة، بيروت، ط01، 1994.

25- علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع- دراسة مقارنة-، دار الصفوة، بيروت، ط01، 1994.

26- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد، ت 505هـ-)، المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد أبي العلا، مكتبة الجندي، القاهرة، ج2، 1971.

27- القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتني وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، الهاشمي الحلبي، ط2، 1951.

28- القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت739)، الإيضاح في علوم البلاغة، تح، عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ج01، 1989.

29- كريم حسن ناصح الخالدي، نظرية المعنى في الدراسات النحوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2006.

30- محمد ماهر زكريا، أثر علم الدلالة في تفسير النصوص - المجاز أنموذجا-، دار النوادر اللبنانية، ط1، 2014.



الحجة في الخطاب المسجدي بين الاقتناع والممارسة ----- د. السعيد قاسمي

31- المنهاج للبيضاوي (مع الإبهاج للسبكي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، 1424هـ.

32- هادي نهر، الكفاية التواصلية والاتصالية دراسة في اللغة والإعلام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط01، 2003.

33- الهادي نهر، علم الدلالة التطبيقي، جدارا للكتاب العالمي عمان — الأردن و عالم الكتب الحديث إربد — الأردن ط1، 2008.

34- هدي صلاح رشيد، تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، دار الأمان، الرباط، ط01، 2015.